

عيد المرأة ... فلسفتي .

جلال خشيب : 08 مارس 2012 .

موضوع المرأة من أكثر المواضيع التي تثير حبرا كثيرا و بلبلة أكثر بين الأوساط الثقافية عموما فلماذا يحتفل العالم اليوم بما يسمى بعيد المرأة ؟ و لماذا كل هذه الضجة ؟

سأحاول تناول الموضوع من مدخل آخر ... ثنائية الرجل- المرأة كغيرها من الثنائيات التي طبع عليها الخلق ، خلق الله النور و خلق الظلمات ، هناك خالق و هناك مخلوق ، هناك موجب و هناك سالب ، هناك ملائكة و هناك شياطين ، هناك ماء و هناك نار ، هناك مادة و هناك روح هناك رجل و هناك أيضا امرأة ، فالكون كله مركبٌ تركيباً ثنائياً من أصغر خلق إلى أكثره ضخامة و عظمة ... يقول تعالى " و من كلّ شيء خلقنا زوجين لعلكم تتذكرون " الذاريات 47-48 ... هذا هو القانون الإلهي في الخلق ..

فالتكن البداية من الإنسان الوثني - في الغرب - ، كانت المرأة تحظى بأهمية قصوى إن لم تكن مقدسة ، كان يُنظر إليها كمخلوق خارق بإمكانه أن يهب الحياة كإله على الأرض من خلال قدرتها على الإنجاب ، كانت تحظى بهالة قداسة إنها الأنثى المقدسة ، و قد إصطنع لها الوثنيون رموزا و أيقونات دينة كزهرة الزنبقة أو علامات فلكية كوكب الزهرة مثلا أو فينوس إلهة الخصوبة و الجمال و كانت النجمة الخماسية أكثر الأيقونات الدينية رسوخا... النقطة الفارقة في تاريخ هذه القداسة كانت في أواخر حياة الإمبراطور قسطنطين الأكبر ، فقد أصبح الخطاب الديني خطابا حاسما في إمبراطوريته آنذاك و كان للكنيسة صوتها المسموع مما تسبب في اضطرابات سياسية و دينية داخل الامبراطورية بين الوثنيين القدماء و المسيحيين الجدد خاصة و انّ الامبراطور قسطنطين كان وثنيا و لم يُعمد إلا و هو على فراش الموت ، لذا أعلن قبوله للمسيحية كديانة رسمية لإمبراطوريته إحتواءا لتزايد نفوذ الإكليروس و الكنيسة الكاثوليكية و درءا للفتنة التي قد تتجم نتيجة لإقصاء هؤلاء... و مع وفاة الإمبراطور بدأت المشاكل تعم الإمبراطورية ، و بدأت الكنيسة تصّفي كلّ ما هو وثني ، فأعلنت الحرب على الوثنية ... بعد عقود تمكنت الكنيسة من محو الكثير من الرموز و الأفكار الوثنية بينما أخفقت في التخلص من أخرى لرسوخها في عقول الناس فلجأت بدلا من ذلك إلى تحوير هذه الرموز و إعطاءها مضمونا آخر كان في أغلبه بغرض تشويه الرمز الأصلي حتى يُمحي معناه الأصلي في أذهان البشر مع مرور الزمن ، فصارت مثلا النجمة الخماسية رمزا للسر و للشور ... و من هنا بدأت حرب الكنيسة على المرأة ، و يشهد التاريخ أنّ الكنيسة قامت بإحراق حوالي خمسة ملايين امرأة في

معظم قرون الظلام التي عاشتها أوروبا - يتم مراجعة هذا العدد - و كانت أكثر الأسئلة شيوعاً آنذاك : هل المرأة إنسان أم أنها تُصنّف في عداد الشياطين ؟ سؤال يعكس التفكير السائد آنذاك ماينستريم ذلك العصر ...

لم تخلوا قرون الظلام كما تعلمون من بعض المصاييح المنيرة في تاريخ أوروبا صنع مجدها فلاسفة و علماء حملوا لواء محاربة خرافات الكنيسة و رجال الدين ، دخلوا في حرب فكرية إنتهت بسقوط الإكليروس و إعلان ميلاد جديد لأوروبا الحديثة إنّه عصر النهضة ... و كما تعلمون كان العلم عاملاً محددًا في إنتشار الفكر العقلاني في أوروبا حيث أعيد فتح النقاش في كلّ ملف فكري كان طابوها محرماً من قبل ، و منها موضوع المرأة التي أعطاهما العلم قيمتها كإنسان حرّاً على قدم المساواة مع الرجل تماماً .

لم تنتهي القصة هنا فهذا مجرد سرد تاريخي يضع لنا إطاراً عاماً لنفهم على الأقل لماذا خُصّص يوم عالمي للمرأة ... الشيء الذي أريد أن أركز عليه هنا هو الفكر الذي صار يحكم أوروبا بعد عصر النهضة ... و سأستعين هنا بمقاربة الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله ... يقسم الدكتور المسيري الفكر الغربي إلى مدرستين أساسيتين الأولى مدرسة إلحادية كمونية وحادية لا تعترف بوجود الله و لا بالثنائية التي طُبع عليها الكون و هذا ما يسميه أيضاً بالعلمانية الشاملة ، أمّا الثانية فهي مدرسة الثنائية التي تقر بوجود خالق و مخلوق ، مادة و روح ، رجل و امرأة ... ، بخصوص المدرسة الأولى فهيو إتجاه فكري يُعلي من شأن المادة كمطلق متجاوز يخضع له الإنسان كقيمة تابعة بمعنى آخر سيتحوّل الإنسان هنا إلى مجرد أداة نفعية تخدم أغراض و أهداف مادية إستهلاكية و حسب دون الإكتراث لهذا الإنسان كجوهر و كمعطى روحي بل دون الإكتراث لا لجنسه و لا لونه فالكل في خدمة المادة أو ما يصطلحون على تسميته بالطبيعة و بالتالي فليس هناك أي إعتراف بما يسمى امرأة أو رجلاً فالمهم هو جسم يتحرك كآلة نفعية منتجة و ضمن هذا السياق يمكن أن نفهم تلك الدعاوي الفكرية لإحداث المساواة بين الرجل و المرأة كضرب للقانون الإلهي الثنائي الذي ميّز بين الجنسين و منح لكل منهما خصائص مميزة له بغية إحداث التكامل بينهما " و جعل بينكم مودة و رحمة " و بالتالي تسخير كلّ منهما في خدمة الآخر وفقاً للخصائص التي فُطر عليها كل جنس ... هكذا يجب أن نفهم اليوم الدعوات الغربية التي يقودها دعاة الحداثة - من أغلب المفكرين لا من العامة - في حين يحمل لواءها أناس من بني جلدتنا دون أي دراية بهكذا خلفيات معرفية فلسفية للمنتوج الفكري الغربي و كأنهم يحاولون إحداث المساواة بين شيئين لا يخضعان لمنطق المساواة إطلاقاً ...

كمسلمين لا نجد في إسلامنا شيئاً كهذا فالكل يعترف بالمنطق الثنائي الذي يقابله الإلحاد ، و لا يوجد إشكال كالأشكال الذي أوجدته الكنيسة ، فالمرأة في الإسلام مخلوق كالرجل تماماً ، و النساء شقائق للرجال لا يعطوا عليها الرجل في شيء و لا تعطوا عليه هي في شيء فكلّ

فضّل الله له فضائل ليُكمّل بها نقائص الطرف الآخر ، لم تغفل شريعتنا عن أي نقطة فوضعت فيها أحكاماً تُصوّب سلوك الجنسين و مدار تخصصهما في الحياة ، هكذا أفهم ما أتى بها الإسلام الدّي لا يمكن فهم شرائعه و نصوصه إلا بمنطق شمولي أي بنظرة شمولية إنسانية بدلا من القراءة التجزيئية التفكيكية للنصوص في غير سياقاتها أو في سياقات يبتكرها فهمنا الإسقاطي الذي يتعمد بطريقة تلقائية اللجوء إلى قراءات مقارنة بين مواضيع لا تحمل وجها للمقارنة بالمطلق ... أمّا أولئك الذين يدعون إلى قبر المرأة في الجهة المقابلة فليسوا إلا فئة ضئيلة في مجتمعنا الإسلامي " المليار و نصف المليار أو أكثر بقليل " فليس من العدل أن نعتبر هؤلاء ناطقين رسميين عن الإسلام كما أنّه من السذاجة أن يطلع علينا أناس من بيننا يحاولون لعب دور إسبينوزا أو كانط في مواجهة " جبروت السلطة الدينية " ، فمقارنة السلطة الأدبية لبعض العلماء عندنا بالسلطة الدينية لإكليروس القرون الوسطى أسميه سذاجة فكرية و ضحك على الذقون أكثر من السذاجة التي تدعوا إلى قبر المرأة في البيت بإعتبارها حكما ربانيا نزل من السماء .

ما أريد أن أقوله كخلاصة للمسألة هو ضرورة الإنتباه للمنطقات الفلسفية و التاريخية التي تحملها كلّ فكرة وافدة من خارج ديارنا ، تحليلها بدلا من إخضاعها لثنائية الحلال و الحرام من أجل التميّز و مخالفة الغرب في أفكاره و معتقداته بغية المخالفة و حسب كهدف ساذج فهذا من شأنه أن يُسطح العقول و يجعلها في حالة تهافت حول الفراغ .

في النهاية أقول أنّ فطرتنا السليمة و ضمائرنا الحيّة بإمكانها أن تُميّز بين ما هو جائز عمّا هو محظور " قبل الإحتكام إلى الشرع الدّي لا غنى عنه بكلّ تأكيد " ، قد أرفض في هذا اليوم مثلا أن أتجه إلى سهرة إحتفالية تُحييها الشابة " لا أعرف كيف عواشة أو حيزية أو فطوم لا يهم أيّا كان اسمها " لأراقص فتيات جميلات متبرجات بزينة " و أنا الماهر في الرقص " لكنّي لن أتوانى في أن أحمل وردة حمراء إلى أمّي " أو زوجتي في المستقبل إن وُجدت بالطبع " ، أقبّلها و أقول لها عيدٌ سعيدٌ يا أحلى زهرة في الوجود .



